

المحاضرة الرابعة: المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي م. د حنين وسام جواد

أن المقدمة الطللية هي أشهر المقدمات الشعرية وأهمها، وأكثرها شيوعاً واستعمالاً في أشعار الشعراء القدماء، فعادة البكاء على الأطلال والرسوم قديمة قدم الشعر نفسه، وتحضر بكثرة في دواوين الجاهليين متفوقة على باقي المقدمات الأخرى؛ حيث كانت تمثل هذه الوقفة الطللية لحظة تأملية عميقة، يعيشها الشاعر في حزن أمام بقايا ديار، وأطلال شاخصة، ومنازل قضت عليها عوامل الهدم والفناء، ومحت معالمها صروف الزمن وتحولاته؛ من أمطار وسيول جارفة، ومن رياح وزوابع عاتية، كما كانت تشكل هذه الوقفة أيضاً حالة نفسية عميقة، وموقفًا باكيًا وأليماً يتأثر له الشاعر أيما تأثر، يستشعر فيه معاني العجز ويجعله يستدعي في شوق ذكرياته الماضية مع أحبائه وأصحابه

والطلل لغة: هو ما بقي شاخصاً من آثار الديار ونحوها، وجمعه أطلال أو طول والأطلال واحداً طلل

أما في الاصطلاح: فهي البقايا التي تظهر شاخصة ماثلة فوق الأرض؛ كالأوتاد، والأثافي، وبقايا الخيام

فالمقدمة الطللية كانت حاجة ضرورية للقصيدة الشعرية العربية منذ مراحل التأسيس، بل إن القصيدة لا تشد الأذهان ولا تستولي على الأسماع، إلا إذا ابتدأت بمقدمة لائقة تطرب لها الأذان، وتستمتع بذكرها النفوس، والحقيقة أن الشاعر كان في بداية قصيدته يقف عند الأطلال، يسترجع ذكريات الأحبة ويصفها وصفًا دقيقًا مفعماً بالآلام والأحزان، ما يثير في أعماق نفس المتلقي والسامع العطف والشفقة، فانبعث ذكرى الأيام الماضية أولاً، ثم ثورة الحزن والألم في نفس الشاعر ثانيًا، وهياج الشوق والصبابة ثالثًا، وذهول الشاعر عن نفسه رابعًا، والبكاء وذرف الدموع خامسًا، ثم التسلي والتعزي سادسًا - كانت هي أهم الحالات النفسية التي عبر عنها الشعراء حين وقوفهم على أطلال الديار

يقول زهير بن أبي سلمى في مقدمة معلقته

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً نَم تَكَلَّمْ

المحاضرة الرابعة: المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي م. د حنين وسام جواد

بحَومَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَثَمِّمِ

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّفَمَتَيْنِ كَأَنَّهَا

مَرَاجِيْعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

و يكاد يجمع نقاد الشعر العربي القدماء على أن امرأ القيس كان أول من ابتداء القصيدة بذكر الديار والبكاء على الأطلال، فنهج نهجه الشعراء من بعده، وجعلوا من الوقوف على الأطلال سُنَّةً يفتتحون بها قصائدهم كما في معلقته الشهيرة التي يبدأها بالقول:

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

بَسَقَطِ اللّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتَوَضَّحْ فَالْمَقْرَأَةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا

لَمَّا نَسَجْتَهُ مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ

أن طبيعة الحياة في بيئة معينة لابد أن تترك أثرها في الأدب بتجلياته المتعددة لاسيما الشعرية منها، وهذا ما ينطبق على البيئة الصحراوية بطبيعة الحال؛ فقلة موارد العيش في هذه البيئة والسعي في طلبها والصراع القبلي عليها جعلت الحياة فيها تقوم على الارتحال الدائم طلباً للكأ والماء أو تجنباً لغزو وشيك، حتى إذا ما رحلت القبيلة عن مكان معين مخلفة أطلالها فيه ومرّ بها شاعر كانت له سابقة حب مع إحدى بنات القبيلة وقف على تلك الأطلال التي عبثت بها عناصر الطبيعة باكيًا، مستبكيًا، يسائل تلك الأطلال عن حبيبته الراحلة، لكنها لا تجيب عن سؤاله، فيعكف على لواعجه المستثارة ويصوغ تجربته شعرًا شجيًا يكشف عجزه أمام الزمان والمكان، ويشي بأن الإنسان هو الحلقة الأضعف بين هذه الأقاليم الثلاثة. ويتراوح عدد الأبيات في المقدمة الطللية الواحدة بين صفرٍ بيتًا كما نرى في معلقة عمرو بن كلثوم التي يبدأها بمقدمة خميرية:

المحاضرة الرابعة: المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي م. د حنين وسام جواد

ألا هبِّي بصحنِكِ فاصبَحينا
ولا تُبقي خمورَ الأندرينا
مشعشعةً كأنَّ الحُصَّ فيها
إذا ما الماءُ خالطها سَخينا

وبين خمسة عشر بيتاً كما في معلقة لبيد بن ربيعة، فضلاً عن أبيات متناثرة في ثنايا هذه المعلقة أو تلك.

ويقف طرفه بن العبد على أطلال خولة ببرقة ثمهد في جمعٍ من صحبه يطلب منه التجلّد:

لخولة أطلالٌ ببرقةٍ ثمهدٍ

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم

يقولون لا تهلك أسى وتجلّد

غير أن زهير بن أبي سلمى في وقوفه على أطلال أمّ أوفى يختلف في الوقوف، فهو يفعل ذلك بعد عشرين عامًا من رحيل الحبيبة عن الدار، ويلقي التحية على الرّبّع ويدعو له بالسلامة:

وقفتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجَّةً

فلأياً عرفتُ الدارَ بعدَ توهمِ

فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لربِّها

ألا انعمِ صباحاً أيّها الرّبّعُ واسلمِ

اسباب الوقوف على المقدمة الطللية

اولاً: الحنين الى الماضي بكل تفاصيله فالشاعر ذكريات في المكان الذي كان يقيم فيه مع الاحبة فمن الطبيعي ان يشواق ويحن الى المكان الذي رحلوا عنه

المحاضرة الرابعة: المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي م. د حنين وسام جواد

ثانيا: تعريف بالأطلال وساكنيها: ان الطلل بوصفه وطننا ومكانا للجميع يدفع الشاعر الى التعريف به من جهة وبساكنه من جهة اخرى فحب الديار من الشاعر يدفعه الى حب من كان يسكن فيها فتأتي مطالع القصائد متأثرة بالمكان ومظاهره وبالماضي واهله يقول امرؤ القيس:

قفا نبكي من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثالثا: اتصال الطلل بالبيئة الصحراوية: فالطلل وطن الشاعر الذي يحرص عليه اما البيئة فتمده بروافد تبعا لمسميات اماكنها التي توجد في ذاكرة الشاعر فالعرب في الجاهلية كانت الاماكن التي يسكنونها كثيرة بسبب كثرة ترحالهم لانهم يسعون وراء الكلاً والماء وحينئذ تتحول الديار العامرة الى طلل ليس فيه احد سوى الحيوانات.

رابعا: انعكاس الظاهرة الطلية في القصيدة الجاهلية: وذلك لأنها تصف حالة الدمار التي نتجت عن الترحال الدائم الذي يؤدي الى الطلل المتدثر. كما انها تصف خروجهم من حالة الدمار الى حالة التوازن, فحياة الخوف والقلق, لابد ان تتجلي وتتحول الى حياة جديدة تنبض بالأمل والسعادة يقول زهير بن ابي سلمى:

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد التوهم

فلما عرفت الدار قلت لربعها الا أنعم صباحا أيها الربع وأسلم

فالشاعر يصف حالة الديار التي تركها منذ عشرين سنة فلم يعرفها في بداية الامر مما سبب له حالة من عدم التوازن ثم بعد ان عرفها عاد له الامل والحياة وذلك يجعل الظاهرة الطللية شيئا ملازما للشاعر الجاهلي تعكسه قصائدهم.